كلمة رئيسة التحرير

لماذا أولوية أهمية التاريخ؟

أ. د. نجاح محمد

قسم التاريخ–جامعة دمشق

يحقّ للقارئ أن يتساءل: لماذا يتكرر، من جانبنا أو من جانب غيرنا، هذا الإلحاح في الخطاب الوطني القومي الثقافي النهضوي في الوطن العربي عموماً وفي سوريا خصوصاً، على أهمية التاريخ على أنّه حركة تطور شاملة لكلّ ما هو موجود، وفي أبعاد الزمن الثلاثة كلّها، الماضي والحاضر والمستقبل، وكذلك على أهمية التأْريخ بوصفه سجلّاً موسوعياً مدوّناً لهذا التاريخ ولحركته. لماذا لا نجد هذا الإلحاح في الخطاب المماثل في دول العالم المتقدّم؟

الجواب بعد تفكير بسيط جداً هو أنّ هذه الأهمية للتاريخ قد أصبحت وجوداً والتزاماً طبيعياً فاعلاً ببداهة في هذه الدول، بينما هي في بلداننا أمر غير واضح ويغيب الوعي المطلوب له حتى عند كثير من السياسيين والمثقفين مع الأسف، بفعل أسباب وعوامل متعددة لا مجال لذكرها هنا، فما يهمنا هو تبرير حديثنا هذا عن هذه الأهمية لإدراكنا الكبير باستمرار الحاجة إليها، ولاسيما أنّ الموضوع المحوري لمجلتنا هذه، وللجنة كتابة تاريخ العرب المعنية بها، هو التاريخ.

نعرف أنّ هناك كثيرين ممن يدركون هذه الأهمية، ولكن لا بأس من أن نُذَكّر بها من ينسى، أو يجهل، أو يتجاهل، وهم كثيرون أيضاً. نقول لهم: علينا أن نمتلك الوعي

بأنّ الواجب على كلّ إنسان، يريد الأفضل لنفسه ولمحيطه ولوطنه، أن يدرك تماماً معنى أنّ التاريخ هو الذي يحفظ ذاكرة الأفراد والشعوب عموماً ويصون الذاكرة الحضارية للأمة خصوصاً التي يشكّل "انتزاعها"، إن جهلاً وتجهيلاً أو تشويهاً وتزويراً، "الشرط الضروري لكلّ تراجع تاريخي" وفق تأكيد الباحث الفرنسي المعروف روجيه غارودي (Garaudy)[١]، ويشكّل تفعيلها الصحيح، بالتالي ووفق منطق الأمور، إن تعريفاً بحقائقها أو تصحيحاً لتزوير معطياتها، "الشرط الضروري" لكلّ تقدم تاريخي، طبعاً من منطلق تكامل عناصر هذا التقدم ووجوب صدقية معطياته وصحتها.

بهذه الذاكرة يبرز التاريخ كحافظ لماضي الأمة ولعطاءاتها وتراثها المادي والروحي، وكحافظ بالتالي للذات الوطنية والانتماء والهوية القومية والحقوق بما فيها حقّ الجغرافيا والأرض. وبهذه الذاكرة يُعلِّم التاريخ الإنسان، وفق تأكيد أحد الأكاديميين الفرنسيين: "السعيَ الحثيث إلى الأمام والتقدم الدائم"[٢]، خاصة أنّه هو الذي يزوّدنا، من خلال التأريخ، بالمعارف والخبرات الضرورية لكلّ استراتيجية تطور ونهضة، وهو الذي يساعدنا، من خلال استيعاب قوانينه، على فهم قوانين حركة هذه الاستراتيجية، وهذه النهضة، وعلى امتلاك أفضل سبل التعامل البنّاء معها[٣]. هذه الأهمية للتاريخ قد أكدتها دراسات علم المستقبل جميعها، ومنها دراسات علم المستقبل العربي[٤]، المعنية بتطلع

---

[١]- روجيه غارودي: نحو حرب دينية، جدل العصر، ترجمة: صياح الجهيم، دار بيروت، ١٩٩٦، ص ٦١.

[2]- Louis HALPHEN: Introduction à L'Histoire, Presses Universitaires de France, Paris, 1948, p. 2.

[٣]- انظر نجاح محمد: "التاريخ والاستراتيجيا والعقل العربي النهضوي على ضوء علم المستقبل العربي" (مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد ٦، ٢٠٠٢، ص٥٣-٨٦).

[٤]- مجموعة باحثين: صور المستقبل العربي، في إطار "مشروع المستقبلات العربية البديلة"، إشراف جامعة الأمم المتحدة، نشر بالتعاون بينها وبين مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢، خاصة ص١٠-٢٨.

الأمة إلى إنجاز مشروعها القومي النهضوي الحضاري في تكوين قوتها الذاتية الحافظة لحرية وطنها وكرامته، والرادعة الضامنة لأمنه وتنميته ونهضته وازدهاره على كلّ صعيد سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي. هذه المعطيات لأهمية التاريخ هي التي تجعله جزءاً محورياً في الأمن الوطني والقومي في الدول المتقدمة كلّها، مما يزيد في أهميته الكبرى.

قيل الكثير عن هذه الأهمية، ولكن ما لفت انتباهنا قول لشيلر (Schiller)، الباحث الألماني الموسوعي المبدع، الذي يعبّر عنها بإيجاز وعمق قائلاً: "تاريخ العالم هو محكمة العالم"[٥]. هذا صحيح: التاريخ محكمة، هكذا يجب أن يكون، المنطلق واحد فيهما، وكذلك الهدف، إنّه الحكم العادل الصحيح المستند إلى دراسة الحقائق والمعطيات الصحيحة الموثقة واستنطاقها، بحيث يبيّن التاريخ موضوعياً، من جملة ما يبيّن، حقيقة ما قدّمت وتقدم كلّ أمة من أممه، سلباً أو إيجاباً.

وكثيرون يعلمون بأنّ الحكم العادل الموضوعي على هذه الحقيقة هو بعض من أهم حقوق الإنسان والشعوب في العالم كلّه، وأي تزوير في وثائقه ومجرياته هو خرق لمعطيات هذه الحقوق. وعليه، يكون كل إسهام في تصحيحه، إن خارج "لجنة إعادة كتابة تاريخ العرب" ومجلة "دراسات تاريخية" هذه أو داخلهما، هو واجب علمي بقدر ما هو واجب إنساني وطني قومي حضاري نهضوي.

هذا ما نَعِدُ أن نقوم به معاً، في مجلتنا هذه وفق منهج علمي موضوعي مدروس. وعددنا هذا هو نموذج نأمل أننا قد وفّقنا فيه، ونحن متفائلون، والفضل يعود بالطبع لإسهاماتكم البناءة القيّمة. وتقديرنا الكبير لجميع من شاركوا ببحوثهم المتميزة فيه معرفياً ومنهجياً ولاسيما تصحيحياً، ومنهم شخصيات علمية أكاديمية لها مكانتها العالية في

---

٥)- قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، طبعة ٥، دار العلم، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٣٢: نقلاً عن فريديريك شيلر (Friedrich Schiller: مفكر ومؤرخ ألماني موسوعي أبدع في التاريخ والفلسفة والشعر والموسيقا والكتابة المسرحية، انظر: www.schillerinstitute.org/about/about.html.).

سوريا ووطننا العربي عموماً، وأخص بالذكر وبكلّ الاحترام والتقدير السادة الأساتذة: الدكتور عفيف بهنسي، والدكتور بهجت قبيسي، والدكتور بسام أبو عبد الله، والدكتور نشأت رعدون، والدكتور محمود عبد الحميد وغيرهم.

إنّ هذا التصحيح، وفق هذا المنهج، يقع على عاتقنا جميعاً، ويتطلب عملاً واعياً مسؤولاً يوصلنا إلى التصحيح العلمي الموضوعي الحقيقي لهذا الكم الواسع من معطيات التزوير والتزييف والتشويه في التاريخ العربي، ولاسيما ما يتعلق منه بالدور السوري والعربي الحضاري العالمي عموماً، وذلك مع أنّ دراسات علم الإنسان (**Anthropology**)، ومنها التأْريخية والآثارية واللغوية وحتى المصادر الدينية وغيرها، قد برهنت أنّ في هذا التاريخ المعطيات كلّها التي تؤكد حقيقة كون المشرق العربي القديم، ومنه سوريا، هو المركز الذي انطلقت منه تجمعات الإنسان العاقل والثقافات والحضارات.

وفي هذا التاريخ ما يبرهن، بالتالي، على كون العرب القدماء، بعطاءاتهم وقلبهم السوري النابض الإبداعي، هم الأصل البشري والحضاري لأمم العالم كلّها، وهم المنطلق لحضاراته جميعها، سياسةً واقتصاداً واجتماعاً وثقافة، ومنها أسس الدولة والأمة والقومية والديموقراطية والمجتمع المدني والمؤسسات وأبرز أنماط الإنتاج المادي والفكري ومعطياته، العلوم والفنون والآداب وكذلك الديانات، ديانة الأم السورية الكبرى عشتار والأديان السماوية التوحيدية الثلاثة، الموسوية والمسيحية والإسلام، التي بدأت جميعها في دوائر عربية، ثم انطلقت منها وبمساعيها إلى بقية العالم، وفق الدراسات العلمية، وباعتراف الدراسات الغربية الموضوعية نفسها، إنها حقائق تاريخية. ولنتذكر أنّ الحرص على الحقيقة التاريخية هو حقّ لكل إنسان، وهو واجب عليه في آن واحد، "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته"، حقاً وواجباً.